فى أفلام السينما (خاصة العا لمية) ، والذين يفرضون أذواقهم وابتكاراتهم على الأزياء ـ للرجال والنساء والأطفال ـ ويغّيرونها مع الفصول والأعوام ، والذين يعكفون على استحداث أدوية وعقاقير يتلهف على استخدامها ملايين البشر ، لتخفيف الآلام ، أو لجلْب الشفاء ، والذين يستخلصون من البترول المنتجات التى تستعمل فى شتى المجالات ، أو من علوم الذرة والإلكترونيات أدوات شتى ومنافع للناس ، والذين يَغْمرون العالم بمنتجات جديدة ، والذين يكدُّون ويبحثون للحصول على مصادر جديدة للطعام ، وتغذية ملايين الجوعَى ، أو مصادر جديدة للطاقة ، وللعمل ، ولتشغيل العاطلين ، أو مصادر جديدة للترويح عن النفس ، والتخفيف من ضغوط الحياة ... كل هؤلاء يدخلون فى زمرة السادة .. سادة عالم اليوم ، والغد ، رغم أنهم ليسوا زعماء ولا ساسة ، لكنهم يشاركون بقسط وافر فى تشكيل الحياة لكل البشر. تلك بعض إفرازات القرن العشرين ، ومعا لمـه البـارزة المؤثـرة ، التى لهـا ما بعدها .

مباهج الثراء ، وهموم الفقر

عبد الرحمن الرافعى

لا حرج ولا مبالغة فى أن يقال : إن القرن العشرين ـ فى إحدى سماته ـ هو قرن الصحوة .. صحوة الكتل الجماهيرية بعد نوم مزعج طويل ثقيل ، وهوان ساحق مُذل عنيد . والأسباب كثيرة ، تتنوع وتختلف ، لكنها فى النهايـة ـ فى شرق أو غرب ، فى شمال أو جنوب ـ تؤدى إلى نفس النتيجة : ثراء عابث متزايد ، يصحبه ترف شرِه غير عابىء ، وفى المقابل .. فقرٍ عابس متكاثف ، يتبعـه شظف مُهلك لا يـزول . ولنأخـذ مثالا مـن هنـا ، وآخر من هناك...

فى كتابه القَيِّم « فى أعقاب الثورة المصرية » ، يذكر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى ـ فى نهاية الجزء الثانى ـ بعض ملامح الصورة الاجتماعية المصرية فى أوائل هذا القرن ، فيقول : « .. فقد أهمل (الاحتلال البريطانى) الإصلاح الاجتماعى إطلاقاً ، ولم ينفق من الإيرادات العامة شيئاً على هذا

الاحتلال هو المسئول الأول عن عدم توجيه سياسة الحكومة نحو هذا الهدف ، لأنها كانت خاضعة لسلطانه المطلق .. فهو المسئول ـ من الوجهة الاجتماعية ـ عن سوء حالة الطبقة الشعبية .

« فالطبقة الخاصة من الأغنياء والكبراء والمثقفين ـ فى مجموعها ـ قد اتجهت وجهة الولاء لسياسته ، والانصراف إلى الحياة النفعية ، فخَلَت الحياة الاجتماعية من المفاخر والعظائم ، لأن الولاء للحكم الأجنبى يتولد عنه صَغار فى النفوس ، يتنافر مع كل ما هو عظيم ونبيل . واجتمع إلى ذلك .. الإسراف فى البذخ والترف ، والرغبة فى الظهور الكاذب ، واقتباس مفاسد المدنية الغربية ، دون محاسنها ، فصارت هذه الطبقة ـ فى مجموعها ـ عنوان الانحلال فى الوطنية وفى الأخلاق ، وأداة للاستغلال الأجنبى فى البلاد ، وتقطعت الروابط بين الطبقات، لانصراف أفرادها إلى المنافع الشخصية ، دون الحياة القومية .

« أما الطبقة المتوسطة فى اليسار والعلم ، فقد اتجهت أيضا إلى الحياة النفعية، تبتغى بلوغ مراتب الطبقة الخاصة ومحاكاتها فى مظاهر الأبهة والبذخ ، فلم تعُد على البلاد من جهودها أية فائدة .

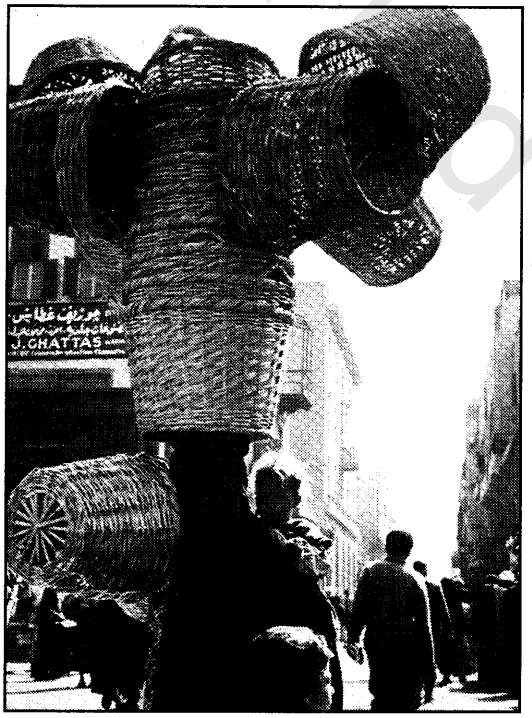

« والطبقة[1] الفقيرة من الفلاحين والعمال ، وهم أغلبية الشعب ، قد ساءت حالتهم فى عهد الاحتلال ، فهو المسئول الأول عن انتشار الجهل والأمية بينهم طوال أربعين سنة ونيف . وهو بسياسته التعليمية .. قد حال دون تعليمهم ، وتهذيبهم ، وتثقيفهم ، فحُرموا نور العلم ، والتربية الأخلاقية والدينية ، وساءت حالتهم المادية والمعنوية ، وأهمل الاحتلال حالتهم المادية والصحية والنفسية ، وانتشرت فيهم الأمراض .

« واجتمعت إلى ذلك .. رعاية الحكومة للآفات الاجتماعية التى جاءت من أوروبا ، ورعاها الاحتلال وحَماها ، فعَمَّت طبقات الشعب على السواء ، كبيرها، ومتوسطها ، وصغيرها . وأُولى هذه الآفات : الربا . فقد انتشر انتشاراً ذريعاً . وساعد على ذيوعه ، ما فُطر عليه معظم الطبقات فى بلادنا من قصر النظر ، وعدم تقدير العواقب ، وحب الظهور ، والإسراف ، ووجَد المرابون من هذا الضعف ، ومن النظم والقوانين ، ورعاية المحاكم المختلطة[2] ، ما جعلهم يتغلغلون فى مختلف الأوساط ، فى العواصم والبنادر

---

(١) فى المصطلحات الحديثة يقال تمويهاً ، أو تحرجاً ، أو مجاملة ، بدلا من«الطبقة» : الشريحة ، أو الفئة، أو المستوى ...

(٢) محاكم خاصة كانت قائمة فى أواخر عهد إسماعيل المتدهور ، وما تلاه ، حتى ألغيت فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٩ نهائيا ، وكان معظم قضاتها من الأجانب التابعين للقنصليات الأجنبية فى مصر لحماية مصالح رعاياها وحقوقهم الظالمة المتعسفة ، وكان هذا النظام القضائى سبة وإهانة لمصر وشعبها .

والقـرى القـريبـة والبعيدة ، فكبَّلوا الأهالى بالديون ؛ مما أفضَى إلى ضياع ثروات الكثيرين منهم ، وانتشـار الفقـر والبـؤس فى الطبقـات الكبيرة ، ثم المتوسطة والصغيرة .

« وانتشرت الخمور الفتاكة بين سكان المدن ، ثم سكان الريف ، وصارت محلات المسكرات تُفتح علنًا فى القـرى بين الفـلاحين ، وفى الأحيـاء الآهلة بالعمال فى المدن ، برعـايـة الحكومـة وحمايتهـا ، وفى كَنف الامتيـازات الأجنبيـة[٣] ، ففتكت بهم فتكاً ذريعـاً ، وأفسـدت عليهم صحتهم ، ودينهم ، وأخـلاقهم ، ونقصت مقدرتهم على العمل والإنتـاج ، وسـاعدت على حـوادث الإجـرام ، والإخلال بالأمن العـام . وبينما الحكومات الأوروبيـة والأمريكيـة التى لا تحرم الخمـور ، تحاربها وتمنع انتشـارها ، وبخـاصـة بين العمال والفـلاحين ... كـانت هذه الآفـة تلقـى من الحكومـة (فى مصر) الرعـاية والتنشيط ، وصـار تجار الخمـور فى المدن والأرياف ذرائـع للتسليف بالربا الفاحش ، واستـلاب أموال الأهلين ، وإفسـاد أخلاقهم . وانتشرت أيضـاً آفة الميسر ، إلى آفـة الخمر ، فسـاءت حالـة الشعب الاجتماعية لذلك .. وصـارت وبالاً ، وزادته هذه الآفـات بؤسـاً وانحـلالاً . وفى ذلك .. يقـول الأمير حسين كامل (الذى صـار سلطانًا على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤) فى حديث له ، نشرته جريدة « ذى إجيبشيان ستـاندارد » ـ أى اللواء المصرى ـ فى عدد ٢٠ أكتـوبر ١٩٠٨م ، يصف بؤس الفـلاح :« إن الفـلاح يقضى حيـاته مثقـلاً بالدَيْن ، لا يزيد إيراده على الضرائب المفروضة عليه ، وفوائد الديون المطلوبة منه . وهو لكى يسد حاجة زراعتـه فى مواعيدها ، مضطر إلى الاستدانة بالربا الفاحـش ، فلهذا العسر من جهة ، ولخلـوه من المال من جهة أخـرى ، ولكثرة من يعولهم من جهة ثالثـة ، قد بقى الفلاح غريقـاً فى بحار الضنك ، لا يعرف لنفسه مخلِّصـاً منها » .. وصفوة القول ـ هكذا يقـول الأستاذ الرافعى ـ : إن سياسة الاحتلال كانت من أهم أسبـاب تأخر البلاد الاجتماعى ، وتشاركه فى حمل هذه المسئولية الحكومات الأهلية والبيئات المصرية ..» .

السلطان حسين كامل

ولما كانت مصر آنذاك فى الواقع والأساس بلدًا زراعيًّا قبل أى اعتبار آخر ، فإن الجدول التـالى يوضح بالأرقام قتـامـة الصورة الاجتماعيـة ، أو عمق بحار الضنك التى أشار إليها الأمير آنفاً .

---

(٣) حقـوق فـرضتهـا الجهـات الأجنبيـة لنفسهـا فى مصر تعلو حقـوق المصريين أبناء البـلاد ، ويذعن لها ويحميها وينفذها رأس الدولة آنذاك وحكومته !

بيان ملكية الأراضى بالمملكة المصرية

موزعة على الملاك لغاية ديسمبر سنة ١٩٤٦[٤] :

فئات الملاك (حسب المساحة المملوكة)	مجموعة ملكية كل فئة	عدد الملاك
لغاية نصف فدان	٣٩٧١٨٥ فدانا	١٣٨٢٦٣١
أكثر من نصف فدان لغاية فدان	٣٥٥٧٦٧	٤٩٢٠٨٤
أكثر من فدان إلى فدانين	٤٩١٠٢٨	٢٣٦٣٥٦
أكثر من فدانين إلى ٣ أفدنة	٣٨٩٤٥٨	١٧٣٥٢٨
أكثر من ٣ أفدنة إلى ٤ أفدنة	١٦٣٤٦٧	٤٩٣٠٧
أكثر من ٤ أفدنة إلى٥ أفدنة	١٨٢١٣٣	٣٩٩٧٠
أكثر من ٥ أفدنة إلى ١٠ أفدنة	٥٦٤٤١٣	٨٣٤٠٣
أكثر من ١٠ أفدنة إلى ١٥ فدانا	٣٣٠٢٥٣	٢٧٣١٩
أكثر من ١٥ فدانا إلى٢٠ فدانا	٢٤٠٨٤١	١٤١٥٧
أكثر من ٢٠ فدانا إلى ٣٠ فدانا	٢٩٠٩٦٥	١١٩١٩
أكثر من ٣٠ فدانا إلى ٥٠ فدانا	٣٥٧٠٦٣	٩٢٠٠
أكثر من ٥٠ فدانا إلى ١٠٠ فدان	٤٦٦٤٥٦	٦٨٥٨
أكثر من ١٠٠ فدان إلى ٢٠٠ فدان	٤٤٣٩٨٨	٣١٧١
أكثر من ٢٠٠ فدان إلى ٤٠٠ فدان	٣١٧٥٧٥	١١٠٢
أكثر من ٤٠٠ فدان إلى ٦٠٠ فدان	٢٣٧٣٨٧	٤٦٢
أكثر من ٦٠٠ فدان إلى ٨٠٠ فدان	١١٧٤٦٧	١٧٧
أكثر من ٨٠٠ فدان إلى ١٠٠٠ فدان	٩١٣٢١	١٠١
أكثر من ١٠٠٠ فدان إلى ١٥٠٠ فدان	١٩٤٧٦٨	١٦٦
أكثر من ١٥٠٠ فدان إلى ٢٠٠٠ فدان	٦٨٧٠٧	٣٩
أكثر من ٢٠٠٠ فدان	٢٠٣١٨١	٤٢
مجموع التوزيع [٥].	٥٩٠٣١٤٣	٢٦٣٦٠٩٦

(٤) فى أعقاب الثورة المصرية (١٩١٩) ـ جـ٢ / عبد الرحمن الرافعى

(٥) كان مجموع السكان فى مصر سنة ١٩٠٠ نحو عشرة ملايين نسمة . وفى عام ١٩٥٠ نحو ٢٠ مليونا .

obeikandl.com

Dans les années 1860, un journaliste du *World* de New York, Daniel Kirwan, se tenait une nuit sur le Pont de Londres et regardait le port de la plus riche cité d'Europe. « La Tamise coulait à nos pieds, » allait-il écrire, « et on aurait cru voir une carte... En bas, à gauche, les Catherine Docks, les London Docks, remplis de navires, Shadwell, où s'alignaient des vaisseaux plus légers... une forêt de mâts... » Mais sous le pont, à l'abri des arches, le décor changeait. Là se tenait « un véritable campement de bohémiens » peuplé d'épaves. « Je vis huit personnes du sexe masculin, deux vieilles femmes à l'air hagard, une jeune fille d'une vingtaine d'années et un enfant de dix ans, toutes dépenaillées et misérables au dernier point. » Kirwan fut frappé du contraste que formaient ces malheureux avec la prospérité qui s'étalait sur le port. Certes, la misère n'était pas une nouveauté, mais la misère dans une société capable de produire d'immenses richesses pouvait difficilement passer pour naturelle. En fait, c'était la grande énigme de l'Âge du Progrès. L'insuffisance du niveau de vie de masses considérables semblait narguer les merveilleux progrès de la science et de l'industrie, et elle empoisonna le climat social de l'Europe pendant tout le XIX^e^ siècle.

وقف مراسل صحيفة « العالم ـ World » الأمريكية فوق جسر (كوبرى) لندن ليلاً ، ثم كتب يصف مشاهداته وانطباعاته عن « أكثر موانىء أوروبا نشاطاً وثراء .. ونهر التيمز ينساب متدفقاً عند أقدامنا .. » . وبعد أن أعطى صورة مبهرة عن السفن الراسيات ، وأخرى رائحات غاديات ، محملة بالركاب والبضائع ، وخيرات البلاد والمستعمرات ، ألقى نظرة إلى ما تحت الجسر ، فقال: « .. فى معزل متوارٍ خلف قواعد الجسر ، اختلف المنظر . هناك ، أقيم معسكر حقيقى للغجر ، يسكنه دهماء مشرَّدون . رأيت ثمانية أشخاص من جنس الذكور ، وامرأتين مسنَّتين تبدو على ملامحهما سمة التوحش والضياع ، وفتاة فى سن العشرين ، وغلامًا فى العاشرة ، وكلهم فى أحط الدرك من التمزق والبؤس » . فزع مراسل الصحيفة من التناقض الصارخ بين مظاهر الثراء الوافر الغالب على مشهد الميناء ، والفقر البائس الساحق لآدمية هؤلاء .

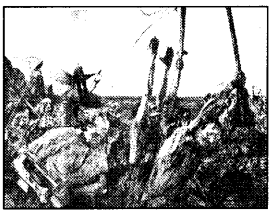

وفى الحق ، لم يكن مشهد الشقاء والبؤس وافداً جديداً على مجتمعات أوروبا فى ذلك الحين .. لكن دراسة « المشهد » أو تحليل الصورة ، يثير الدهشة والجزع ، إذ لا يمكن التسليم بأن يكون أمراً طبيعياً انتشار الضياع والفقر والبؤس على هذا النحو داخل مجتمعات قادرة ـ بما لديها من إمكانيات وثروات ـ على انتشال المطحونين والمشردين من عذاب المعاناة وقسوة المذلة والهوان ، ولاذنْب لهم فى هذا ، ولا فى ذاك .

إنه الوجه الآخر من « العملة » المزيَّنة بإشراقة القرن العشرين . نعم ، هى

عملة مزينة براقة مبهجة : فالتقدم العلمى ينافسه التطور التكنولوجى ، و إنتاج ا لمصانع يسابق مخزون الزراعة بالصوامع ، وثروات الأثرياء تثير فى نفوس كثيرين ثورة دفينة واشتهاء ... فكانت تلك هى الصورة القاتمة لمجتمعات عبرت أبواب التطور والتقدم ، أو هى الوجه الكالح للعملة التى تحمل تاريخ بداية القرن . وسرعان ما انتقلت ا لمشاهدة الصامتة والصرخات الخرساء ا لمكتومة ، إلى لغط وشطط ، وضجيج وعجيج ، تَفَجَّر فى نهاية ا لمطاف ، وانطلق هادراً لايخاف ، واستباح لنفسه ما كان يأمل ويرتجى ، وانتزع عنوة ما كان يهاب ويشتهى .

إنها « أزمة » عصر الزهو واللهو والتقدم . كان واضحاً ـ ومؤلماً وعجيباً فى الوقت نفسه ـ ازدراء الطبقة الثرية ا لمترفة ا لمرفهة ـ وهى القلة ا لمسيطرة ـ لجماهير الطبقة الفقيرة الضعيفة ا لمنحدرة على الدوام فى مهوى الهوام . وزاد الأمر سوءاً ، وا لمشكلة تعقيداً ، أن الصناعة تضخمت ، والتجارة اتسعت ، ومجالات الإنتاج والتسويق تنوعت ، فتضاعفت أعداد العمال ، أى زاد حجم الكتل البشرية الذليلة ، لأنهم فى الأغلب الأعم ، لم يكونوا فى مستوى اجتماعى مقبول، ولا يتوافق مطلقاً مع الانطلاق الكبير فى التقدم العلمى ، والازدهار ا لمبهر فى الإنتاج الصناعى .. فكان الأثرياء فى قرارة نفوسهم ، وأحياناً فى ثنايا أحاديثهم ، يعتبرون هذه الطبقة الشعبية العمالية ـ ا لمنتجة ـ آفة تكدير صفو العصر ، ومصدر إزعاج داخل ا لمجتمعات الأوربية ، منذ القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين .

من أجل ذلك .. كان الضيق والتضييق ، والنزاع ثم الصراع ، فلما نشبت الثورات الدموية (١٩٠٥،و ١٩١٧) فى روسيا ، هللت لها وهتفت مؤيدة حشود من العمال والفقراء والبائسين فى كل أنحاء أوروبا ، وخارج أوروبا . ومن الحق أن يقال : إن الثورة الصناعية (فى القرنين ١٨ و ١٩)جلبت إلى ملايين الأفراد قدراً من الكسب ، وأتاحت فرصاً لتغيير أحوال ا لمعيشة .لكن ، وهذا حق أيضاً ، كانت ظروف العمل قاسية مهينة ، وأحوال العمال صحيا ، وتعليميا ، وأمنيا ، واجتماعيا كانت سيئة مهيضة . وظهرت مشكلة : أن أعداداً ضخمة من الأيدى العاملة نزحت إلى ا لمدن وضواحيها ، تقيم فى عشوائيات سكنية ، لا تحظى بأدنى رعاية أو أمان اقتصادى للمستقبل .. ولو كان الغد القريب .

(١)

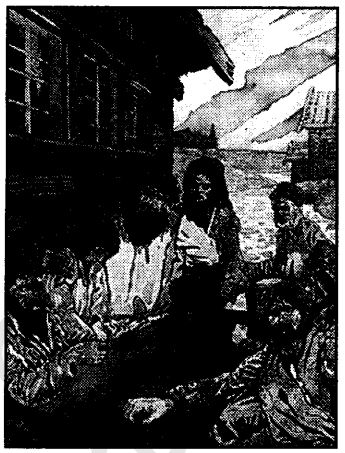

(٢)

(١) تتويج القيصر الكسندر الثانى فى قصر الكرملين.

(٢) كان الشعب الروسى قبل الثورة منقسما إلى طبقة الثراء الفاحش وطبقة الفقر المتوحش الغالبة.

وقبل عصر الثورة الصناعية ، كان المجتمع ـ فى أوروبا ، والشرق، وفى معظم المجتمعات ـ يتكون غالباً من طبقتين : الطبقة الأرستوقراطية ، وطبقة الفلاحين . الأولى تملك الأرض ، والثانية تفلحها وترعاها ،وتعيش عليها كالرقيق ، وإلى جانب الزراعة الجبرية ، تربى للسيد المالك ماشيته وأغنامه ، هكذا جيل بعد جيل . وبالرغم من سوء هذا النظام فى القهر والعبودية ، إلا أنه كان يقدم للفلاح بعض العون ، أو العوض : ففى أحوال الاضطرابات والشدائد والفزع ، كان السيد المالك المبجل هو الملاذ والملجأ ، لديه المأوى، وتحت مظلته الحماية والرجاء ... فلما أقبلت الثورة الصناعية وانتشرت ، أطاحت بهذا النظام ، وحررت الفلاح والعامل الزراعى من قيود الارتباط بالسيد المالك ـ أو الإقطاعى كما يسميه البعض ـ وكذلك بالأرض . وأخذت البلاد تدريجياً ـ غرباً وشرقاً ـ تدخل فى عصر جديد ، ونظام اجتماعى مختلف ، أطلق حرية العمل والسعى ـ وإن كانت فى ظروف رديئة ، شاقة كما ذكرنا ـ وقطع الصلة الإنسانية والأمنية بين العمال وأصحاب المصانع والأعمال . وقد بدأ ذلك النظام الجديد فى إنجلترا وفرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وامتد إلى روسيا حين أعلن القيصر ألكسندر الثانى (فى عام ١٨٦١) تحرير عشرين مليوناً من أرقاء الأرض . فأين يذهب هؤلاء ، وقد انقطعت عنهم مصادر تلبية احتياجاتهم الضرورية الأساسية ، كالمأوى والطعام ، التى كانت تأتيهم من سيد الأرض ؟ !. بحثوا عن مورد للكسب فى ميدان الصناعة وفى المناجم . وأصبح الأجر ـ وإن كان زهيداً لا يساوى

الجهد المبذول لساعات طوال ، وفى ظروف شاقة خطرة مؤلمة ـ أصبح بديلاً عن المأوى والإطعام والحماية فى أرض السيد . وترك ملايين الفلاحين الأرض ، هجوماً على المدن ، وهم فى خوف وقلق ، وتعرضوا لكثير من المتاعب والمصائب والاستغلال والإذلال (ولسوف يعيد التاريخ نفس المشهد ـ ولو بدرجات متفاوتة ـ فيما بعد ، قرب نهاية القرن مع انهيار الاتحاد السوفيتى).

وفى واقع الأمر ، لم يتغير من « الصورة » المعيشية لهؤلاء ـ وهم الكثرة العاملة المنتجة ـ إلا بعض الخطوط الثانوية ، والألوان القاتمة ـ أما الملامح العامة والسمات ، فقد ظلت كما هى : نَصَب ، ووهَن ، ورِقّ، وإذلال . إن القوانين التى منحتهم حق التحرر من عبودية الأسياد ، هى التى أتاحت لهم ـ عن غفلة أو عَمد ـ حق الموت جوعا فى صمت الجماد . كيف ؟ . إنهم فى الأصل والمنشأ مزارعون ، لا تُحسن أيديهم إلا أعمال القرى والحقول . والصناعة تحتاج إلى أيدٍ محترفة مدرَّبة . ولأنهم كثرة نازحة متزايدة ، فقد وقعوا فريسة القهر والاستغلال من جانب « السيد » الجديد ، الذى يملك ـ بلا حسيب ولا رقيب ـ المصنع وآلاته ومُعداته ، أو المنجم وأدواته ، وأساليب نزح خيراته .. أى يملك ما أطلق عليه كارل ماركس : « وسائل الإنتاج » ، فصار تعبيراً شائعاً على كل لسان .

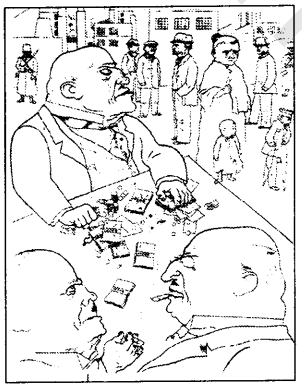

« السيد » صاحب العمل يجمع الأموال والعمال يتضورون جوعا . وإلى اليمين أم فى حجرة مظلمة تبكى طفلها المحتضر .

إن « السيد » المهاب الجديد ، يختلف بالضرورة عن « السيد » المبجل القديم. وهذا أمر طبيعى ، لاختلاف الموقع ، والعمل ، ومظهر التحكم والسيادة . من قبل ، كان الفلاح البائس المسكين ، يزرع الأرض ، وينتظر المحصول . الآن ، لا صبر ولا انتظار .. فالآلات لا تتوقف ، والعمل الشاق متواصل ، وإرضاء « السيد » أو معاونيه ـ على أى نحو وقصد ـ حتْم

مفـروض .. وإلا ، فـالتعـذيب أو الإدانة أو الطرد ، والآلاف غيره ـ أو غيرها ـ كثيرون متلهفون . والأجـور لا ضابط لها ولا رابط : فهى مع الأيدى المدرَّبة واحتياج العمل ، مناسبـة لا بأس بها ، لكنها قـد تنقص ولا تزيد . أما مع غير هذه ، فهى أجـور لا تكفى مطلقـاً لتغطيـة نفقـات الحد الأدنى للمعيشـة . وباختصار : كـانت « الصورة » مفـزعة .. والهُوة سحيقـة بين صاحب رأس المال الذى يملك كل الحقـوق ، والعـامل الأجير الذى عليـه فقط أن يخضع ويقْنع ويطيع ، وإن هلك عملاً، أو جوعاً ، أو ضحية صقيع .

وحتى الأطفـال ، لم يكـونوا فى معـزل عن تلك الصـورة الكئيبـة ... ففى تقرير (عام ١٨٩٠) للجنة قضائية كُلفت بالتحرى عن عمل الأطفال فى إحدى المقاطعـات البريطانية ، جاء :« إن الأطفال الذين يعملون فى الأشغـال اليدوية الدقيقة (صناعة الدانتيل) يُنتزعـون من الخرائب التى يسكنونها فى الثانية ، أو الثـالثة ، أو الرابعـة صباحـاً ، ويُـجبرون على العمل بأجـور ضئيلة حتى العـاشرة، أو الحادية عشرة مسـاء ، أو إلى منتصف الليل .. فكانت وجـوههم شاحبة ، وأجسادهم ضـامرة ، وأيديهم ذابلة ، وعيونهم من الرعب زائغة . إن منظرهم حقًّا مخيف » !.

وفـى حـوار تلك اللجنة مع أحـد الأطفال، جـاء على لسـانه ـ كما ورد فى التقـرير ـ : «إننى أعمل فى ورشة للخراطة. أبدأ عملى يومياً من السادسة صبـاحاً، وأحيـاناً من الرابعة ، وحتى الليل . بالأمس امتـد عملى طوال الليل ، واستمـر حتى الآن . إننى لم أنم منذ أول أمـس . كـان يعمل معـى بالأمس ثمانيـة أطفـال بهذا الشكل ، لم يحضر منهم اليوم غير واحـد . أكسبُ أجـراً قدره ثلاثة شلنات وست بنسات فى الأسبوع ، سواء عملت ليلاً ، أم نهاراً ، أم ليلاً ونهاراً معاً » .

فى الفترة بين عـامى ١٨٧١ و ١٩٠٠م ، هاجـر مـن أوربا إلى أمـريكا واستراليا وغيرهما من البـلاد نحو ٢٥مليـوناً ، فى أكبر هجرة بشرية محدودة الزمن فى التاريخ البشرى . ولم تتوقـف تلك الهجرات الجماعية الكبيرة إلا مع اندلاع الحرب العـالميـة الأولى (١٩١٤) . ومع ذلك .. لم تخفّ وطأة المعـاناة عن الذين لم يهاجـروا . مثـلا : فى أواخـر القـرن السـابق ، وأوائل القـرن العشرين ، كـان العمال يتكدسـون فى مناطق سكنيـة عشـوائيـة بعيـدة عن الأحيـاء التى يقيم بها القـادرون والأثرياء.. وأحيـاناً يسكنون الخرائب ، والمزابل ، والكهوف . فى كوخ متهالك قـذر فى أحد أحياء لندن الحقيرة (ونحن نتخـذ لندن نمـوذجاً ، لأنها كـانت عـاصمـة الإمبراطورية الأقـوى والأغنى

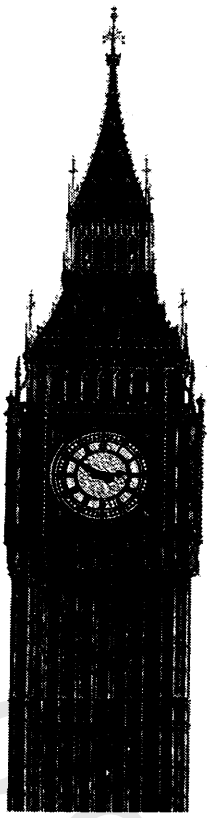

والأضخم فى العالم) ، كان يسكن ـ كما ورد فى أحد التقارير للجنة بحث مَلكية ـ ثلاثة وستون شخصاً فى تسع غرف عطنة ، فى كل حجرة سرير واحد. وفى بيوت العمال الجديدة ، كانت مواد البناء رديئة للغاية ، والإهمال ظاهراً بوضوح ، والحجرات خالية من النوافذ ، لأن الحكومة كانت تتقاضى عنها ضرائب !، ووسائل الإمداد بالمياه النقية أو الصرف الصحى معدومة ، أو فى حالة سيئة ... فالماء العذب نوع من الترف . والمناطق العمالية بأجمعها خالية من الأشجار والمساحات الخضراء . البيوت معتمة رطبة ، والشوارع الضيقة كريهة قذرة . لذلك .. تنتشر الأمراض والأوبئة ، مثل : الكوليرا ، والتيفود ، والتيفوس ، والسل ، وكانوا يسمونه «الطاعون الأبيض » . كان شائعاً ، وكذلك الدفتيريا ، وعديد من أمراض الفقر والبؤس . وكما ذكر العالم البريطانى المشهور « يونج » (*) : « من العسير حقًّا تقدير حجم البؤس ، ووطأة الرعب داخل هذا العالم ، حيث تعيش آلاف الأسر لاتكاد ترى النور ، وتقضى حياة قاسية مفزعة .. من العسير تخيل حالة الماء الذى يشربونه ، ولونه يميل إلى البُنى ، لما به من نفايات ، أو تصوُّر حالة جثث موتاهم التى قد تُترك نحو أسبوعين بلا دفن ؛ فتأخذ فى التحلل داخل لندن صيفاً فى شهر أغسطس ، فتخرج منها الديدان ...» .

كان طبيعيا إذن ـ فى إطار تلك الصورة ، أو هذه الحياة الوحشية الموحشة ـ أن يترك الآباء أطفالهم إلى الشوارع والأزقة يفعلون فيها ما يشاءون ، ويُفعل بهم ما يرغبون وما يكرهون : « فهم ضحايا الفقر والبؤس، ومطمع الإجرام والفسق. وتحت سمعهم وأبصارهم كل أشكال الرذيلة والفساد ». هكذا كتب عنهم من لندن «دانيل كيروان » . وفى باريس ، عاصمة الترف والسَّرف والنور والعطور ، راح الأخوان « جونكور ـ Goncourt » يتجولان طويلاً طويلاً فى الأحياء الفقيرة بالعاصمة ، ليلتقطا مادة قصصهما الروائية «الواقعية» التى حظيت بشهرة واسعة ، وثراء وفير. وذات يوم ، شاهدا أطفالاً فى أسمال ممزقة بالية ، يضحكون بشدة وصخب مرح على منظر شاب أُلقى القبض عليه، وضُرب ضرباً مبرحاً ؛ حتى زهقت روحه أمامهم ، وهم مستغرقون فى التهليل والضحك ، بينما الجمهور من الكبار ـ كأنهم شخوص فى سيرك ـ يمرون على تلك المذبحة بلا اكتراث ، أو ينظرون ملياً بلا أدنى تأثر أو انزعاج!.

هكذا كان الحال من الأهوال فى أحياء العمال ، بينما على الجانب البعيد

(*) توماس يونج : طبيب فيزيائى

الآخر من العاصمة البريطانية ، كانت الفخامة والرفاهية والأناقة والأبهة . إنهما عالمان متباعدان منفصلان ، بينهما تناقض صارخ ، وتباين جارح ، وعداء مكتوم . وبينما كان الطفل الذى يولد فى بيت ـ أو قصر ـ الترف والنعيم يُتوقَّع له فى المتوسط أن يعيش على الأقل إلى سن الثامنة والثلاثين ، كان ابن الفاقة والضنك لا يأمل أن يتجاوز السابعة عشرة .

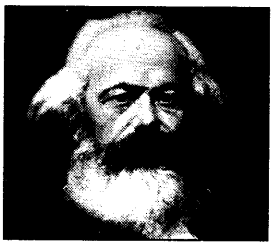

كارل ماركس

من تلك البيئة ، ومن خلال التناقضات المفزعة الصارخة داخل الصورة ، استمد « كارل ماركس » نظريته التى سوف تلعب دوراً كبيراً ومؤثراً على جوانب الحياة فى القرن العشرين ، مثلما استمد « بنيامين ديزرائيلى » [٦] فكرته عن أن أوروبا تضم شعبين : الأغنياء والفقراء .ثم قال : « يجب أن نُعد أنفسنا لغدٍ ينتظرنا . إن المستقبل سوف يطلب منا حساباً دقيقاً قاسياً عن عذاب وآلام ملايين الأشخاص ».

وهذا ما فعله القرن العشرون !. كان « طبيعياً » أن يثير فى أذهان مفكرين كبار ، مثل « هربرت جورج ويلز » ، و « جورج برناردشو » فى بريطانيا ذاتها أفكاراً عن « الاشتراكية » ، وتكوين « الاتحاد الاشتراكى الفابيانى ». وينتشر التعبير « الاشتراكى » بسرعه انتشار الحريق فى كل أرجاء أوروبا . فى فرنسا ، فى عام ١٨٩٣ ، يدخل البرلمان (المجلس الوطنى) لأول مرة نائب اشتراكى ، ممثلاً لحزب الاشتراكيين . وفى عام ١٨٩٥ يفوز الحزب الماركسى باثنى عشر عضواً فى البرلمان ، يزيدون إلى ثلاثة وثلاثين عام ١٩٠٠ . وفى تلك السنة ، ينال الحزب الاشتراكى النمساوى أربعة عشر مقعداً فى البرلمان . وفى ألمانيا ـ مهد الفكرة الاشتراكية الشيوعية ـ يحصل الاشتراكيون الديموقراطيون (عام ١٨٩٨) على ثلاثة ملايين من أصوات الناخبين ، تتيح لهم ستة وخمسين مقعداً فى الرايختاج (البرلمان) من بين ثلاثمائة وسبعة وتسعين للأعضاء ، ويتضاعف عدد ممثلى هذا الحزب الاشتراكى الديموقراطى عام ١٩١٢ فى البرلمان ، فيُصبح ١١٠ نائباً . وهتلر ـ فيما بعد ـ ألم يكن رئيساً للحزب القومى الاشتراكى الألمانى ؟ .

يوحنا بولس الثانى

وسواء بصراع الطبقات الذى حضَّ عليه ماركس ، وإنْجلز ، أو بالإضراب والعصيان عن العمل ، الذى دعا إليه المعتدلون المسالمون ، أو بالقوانين

---

(٦) كونت بياكونسفيلد ، ورجل الدولة البريطانى الشهير (١٨٠٤ـ١٨٨١) وكان أيضاً روائياً . تولى رئاسة الوزراء عام ١٨٦٨ ، ثم من ١٨٧٤ ـ ١٨٨٠ ورئاسة حزب توري (المحافظين) ، وهو الذى أعلن فيكتوريا امبراطورة على الهند .

التشريعية التى انتزعها النواب الاشتراكيون فى البرلمانات المختلفة ، فإن القرن العشرين كان شاهداً على العصر ، مسجلاً ـ منذ بدايته ـ لمشاهد وألوان من التغيرات الاجتماعية الكبيرة التى حولت مسار وأفكار واتجاهات ونظم الدول والشعوب . وتردد صداها ـ وبالتالى أثرها ـ فى أنحاء العالم كله. وامتد تأثيرها كذلك على رجل مثل بابا روما « ليو الثالث عشر » ـ ١٨٧٨/ ١٩٠٣ ـ فوجدت منه مدافعاً منافحاً فذًّا (مثلما شهد العقدين الأخيرين من القرن ذاته (العشرين) قريناً له حصيفاً ذا تأثير واضح وكبير على التحولات السياسية والاجتماعية فى أوروبا والعالم ، وخاصة على انهيار دولة الاشتراكية الشيوعية الكبرى ، أى الاتحاد السوفيتى وكتلته فى أوروبا الشرقية، وهو « يوحنا بولس الثانى »). قضى ليو الثالث عشر الخمسة والعشرين عاماً فى منصب البابوية ،مشغولاً ـ بذكاء وبحماس غير معهود ـ بقضايا ومشكلات العالم الجديد ، المقبل على القرن الوليد .

جمال الدين الافغانى

ولئن كان « ليو الثالث عشر » لم يُخْفِ نقده واشمئزازه من الفكرة الماركسية، فإنه لم يجامل ، ولم يحابِ النظرة الرأسمالية : « فلا يوجد عداء طبيعى بين الطبقات كما تزعم الماركسية (هكذا كتب فى رسالته البابوية عام ١٨٩١[٧]) التى تعطى للدولة حقوقاً تعلو وتطغى على حقوق الأفراد أبناء الشعب ، وأصحاب الحق الأول والأوفى ». وفى الرسالة نفسها يناشد الرأسمالية أن تعدِّل وتحسن من أساليبها :« فالعمل ليس سلعة . وإنه لمن العار أن يُعامل الإنسان مثل آلات الإنتاج والانتفاع ». ثم يضيف : « من الواجب أن تستجيب الملْكيات الخاصة (بما يسمى الآن قطاع الأعمال الخاص) ، وبسرعة للأساليب المنصفة لكل أفراد المجتمع » ، ثم يدعو إلى مؤازرة عمل النقابات ، وإعطاء مطالبها أُذناً صاغية . ولا يغفل الإشارة إلى المحافظة على الأخلاقيات المقدسة للأسرة قبل وبعد كل شىء ، ومن بين الوسائل التى تحقق ذلك : تخفيض ساعات العمل ، خاصة بالنسبة للنساء والأطفال .

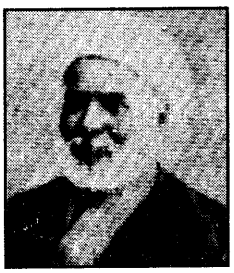

الإمام محمد عبده

لم يكن غريباً أن تظل هذه الرسالة القيمة مجرد دخان فى الهواء ، فى سماء الرأسماليين، وأصحاب الأعمال الأثرياء .. فالدولة ـ فى النظام الغربى ـ فصلت الدين ، وأبعدته تماماً عن مسارها السياسى منذ قرن مضى ، لكن

---

(٧) Rerum novarum

أثر تلك الرسالة أيقظ فى نفوس الملايين من أبناء الطبقات الكادحة فى أوروبا الشعور بأن الكنيسة الكاثوليكية تحس بآلامهم ، وتتعاطف معهم فى مطالبهم، ومن هنا كان ميلاد كثير من الأحزاب السياسية فى البلاد الكاثوليكية ، تتضمن برامجها ما يتفق مع أسمائها عن « الاشتراكية المسيحية » . وفى بلاد الشرق الأوسط ترددت الصيحة نفسها من علماء دينيين أجلاء ، من أمثال : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده .

بعد إشراقات القرن الجديد ـ العشرين ـ وبداياته ، استطاع المجتمع الأوروبى أن يقدم نفسه نموذجاً لمجتمعات العالم : فقد بدأ فى إصلاح بعض أخطائه ، وعلاج كثير من أمراضه ، وإزاحة قدر كبير من العَنَت الذى أثقل كاهل الجيل السابق . لم تعد مطالب الجيل العامل الجديد هى مطالب آبائهم نفسها التى كافحوا ـ وبعضهم مات ـ من أجلها ، من أجل العدالة الاجتماعية. وصحيح أن ظروف المعيشة لم تصبح بعد لائقة تماماً أو ممتازة ، لكنها بالفعل تحسنت . وفى كل البلاد الأوروبية ـ باستثناء روسيا ، وبعض دول البلقان ـ صدرت قوانين تنظم العمل بروح إنسانية ، وتضع ركائز نظام اجتماعى يضمن قدراً من الأمان والإنصاف . وتكوَّن المزيد من النقابات ، ونشطت وأثمرت . وتحسنت الأجور . وظهرت فى جوانب الحياة المختلفة بشائر الانتصار على ثالوث الخطر المُعادى لكل تقدم وكل حضارة : البؤس ، والجهل ، والمرض . وكان هذا التحول واضحاً فى المدن الكبيرة ، وبدرجة أكبر فى مجالات الرعاية الصحية. ومُدت خطوط جلْب المياه النقية لمئات الكيلومترات ، ومثلها خطوط الصرف الصحى. وتم تطهير مياه الأنهار ، وساعدت اكتشافات لوى باستير فى فرنسا ـ الذى توفى عام ١٨٩٥ ـ ونظريته عن الميكروب والمصل ، ساعدت على نشر الوعى الصحى والوقاية . وكذلك بحوث واكتشافات جون ليستر فى بريطانيا ، وكان جديراً بأن تمنحه الملكة فيكتوريا مرتبة النبلاء .

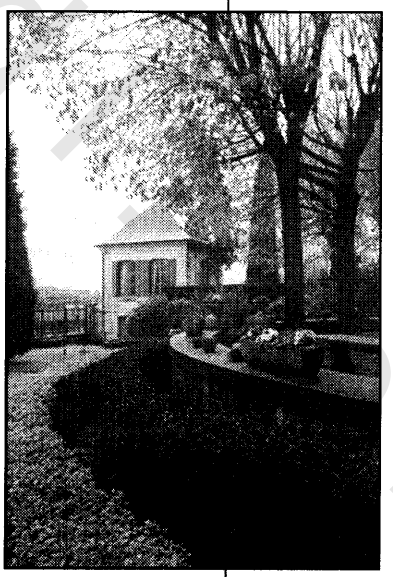

واستقبلت المدن بزهو وابتهاج خطوط الغاز والكهرباء، فأضيئت الشوارع ، والبيوت . وجرت على الطرقات ـ لأول مرة ـ « الخيول الحديدية » ، أى السيارات ، ثم عربات الترام ، وأضيفت إلى المدن ـ وكل الأحياء ـ رئات

جديدة للتنفس ، ممثلة فى حدائق عامة خضراء مزهرة ، وملاعب للأطفال . واستمدت المدن الكبرى من فيينا ما قرره عمدتها « كارل لوجر » من تكفل الدولة ـ مع خدمات الغاز ، والماء النقى ، والترام ـ بإنشاء بيوت الأيتام ، والإنفاق عليها ، وكذلك مؤسسات دفن الموتى ، وإحاطة العاصمة ـ كما فعل هو فى فيينا ـ بحزام أخضر من الأشجار والحدائق الفسيحة فكان « لوجر» نموذجاً فذًّا للبطل « الاشتراكى » ، محبوباً من الجماهير التى أعادت انتخابه عمدة للمدينة من عام ١٨٩٠ إلى ١٩١٠ م .

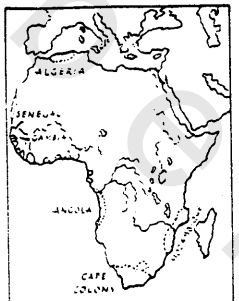

European Colonies in Africa -1878

هكذا شق العمال طريقهم فى مسار القرن العشرين ، وأخذ يتسع ويتسع ، وأصبحوا قوة فعالة مؤثرة فى سياسات الأحزاب ، وما يصدر من تشريعات، وفى توجيه الرأى العام ، وفى شئون الدولة ، بعد أن صار التعليم إجبارياً ، وظهور الصحافة الشعبية والعمالية : فى إنجلترا ، وفرنسا ، وهولندا ، وبلجيكا، وألمانيا ، وإيطاليا ، وسويسرا ،والدول الإسكندنافية . وانخفضت نسبة الأمية فى بعض هذه الدول إلى ٥٪.

وتقاربت المسافات بين الطبقات .. ضاقت الهوة ، وتضاعفت القوة ، وزادت روابط الألفة والأخوة داخل مجتمعات طابعها الرأسمالية الحرة . ورفعت شعار القومية والوطنية ، مقابل ـ على الجانب الآخر ـ الماركسية العمالية (البروليتارية) ؛ فاستقر النظام الاجتماعى على قاعدة قوية راسخة ثابتة ، فحواها : الدولة .. الوطن .

لُعبة الحرب والسلام

عندما اقترب القرن العشرون من نهايته ، حدث شىء عجيب ، فاجأ العالم كله ، إذ لم يكن فى الحسبان : انهار الاتحاد السوفيتى (لا «امبراطورية الشر » كما أطلق عليها الرئيس الأمريكى رونالد ريجان) [١].. فكان هذا الانهيار المدهش إيذاناً بزوال شبح التهديد بصدام مُهلك خطير ـ تدخل

(١) لابد أن نذكر هنا توقعات بعض المفكرين والسياسيين ـ فى الشرق ، كما فى الغرب ـ عن فشل النظام الشيوعى قريباً فى وقت ما ، نتيجة لمثالب فى النظرية ، وفى التطبيق . وعلى سبيل المثال : الأستاذ عباس العقاد فى أكثر من كتاب ومقال ، والرئيس الفرنسى شارل دوجول ، الذى كتب فى مذكراته قبيل وفاته (١٩٧٠) أنه بعد نحو عشرين سنة لن يكون للاتحاد السوفيتى وجود ، وهذا ما وقع بالفعل . لم تكن نبوءة .. وإنما هى تقدير ، وحس رجل دولة سياسى رفيع المستوى .